مَـا الـدَّهْـرُ عِـنْـدَكَ إلَّا رَوْضَـةٌ أُنُـفٌ
يَـا مَـنْ شَـمَـائِـلُـهُ فـي دَهْـرِهِ زَهَـرُ[١]
مَـا يَـنْـتَـهِـي لَـكَ فـي أيَّـامِـهِ كَـرَمٌ
فَـلَا ٱنْـتَـهَـى لَـكَ فـي أعْـوَامِـهِ عُـمُـرُ[٢]
فـإنَّ حَـظَّـكَ مِـنْ تَـكـرَارِهَـا شَـرَفٌ
وَحَـظَّ غَـيْـرِكَ مِـنْـهَـا الـشَّـيْـبُ وَالْـكِـبَـرُ[٣]

الشمس تكسب منك نورها

قال الشاعر يخاطب سيف الدولة وقد دخل عليه رسول ملك الروم سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة (٩٥٤م):

[البسيط]

ظُـلْـمٌ لِـذَا الْـيَـوْمِ وَصْـفٌ قَـبْـلَ رُؤْيَـتِـهِ
لَا يَـصْـدُقُ الْـوَصْـفُ حَـتَّـى يَـصْـدُقَ الـنَّـظَـرُ[٤]

= ممدوحه، فإطلالته تعكس إشعاعاتها مع ولادة الأهلّة فتُستنار بجمال وجهه وكمال عطائه، وبذلك يشمل كمال نوره البشر وسائر الكائنات التي بها قِوام الحياة كالقمر والشمس.

(١) وردت الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة في الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. الأنف من الرياض: البكر التي لم يرعها أحد. الشمائل: الأخلاق. يمدح الشاعر ممدوحه، فأخلاقه زهر تشعّ جمالاً وفوحاً عطراً، وقد اكتمل انسجام الكون في فرحته فكان روضة بهيّة بكراً بإطلالة الممدوح على الوجود.

(٢) و (٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه لكرمه العظيم الدائم أبد الدهر، وإنه باطراد يزداد بمرور الأيام، ولذا فإن الشاعر يدعو له بدوام العمر مدى الأعوام ممّا يزيده شرفاً وعلوّ شأن؛ فالحظ مؤاتٍ له. بينما سائر الناس تدبّ فيهم الشيخوخة ويُكلّل الشيب رؤوسهم، ويميل بهم تقدّم السن إلى النهاية المحتومة.

(٤) يبدأ الشاعر قصيدته دون مقدّمات تقليديّة. إنه يوم عظيم يودّ الشاعر أن يصف أحداثه، ولكن الشاعر قد تأخر فلم يُتح له أن يطّلع على ما جرى فيه، ولذا فالوصف لا يكون تاماً إلّا إذا رأى وسمع ما جرى فيه ليكون الوصف صادقاً، لأن ما جرى فيه يُعدّ من مفاخر سياسة سيف الدولة مع عدوّه اللدود ملك الروم.

تَـزَاحَـمَ الْـجَـيـشُ حَـتَّـى لَـمْ يَـجِـدْ سَـبَـبـاً
إلـى بِـسَـاطِـكَ لِـي سَـمْـعٌ وَلَا بَـصَـرُ[١]
فَـكُـنْـتُ أَشْـهَـدَ مُـخْـتَـصٌّ وَأَغْـيَـبَـهُ
مُـعَـايِـنـاً وَعِـيَـانِـي كُـلُّـهُ خَـبَـرُ[٢]
أَلْـيَـوْمَ يَـرْفَـعُ مَـلْـكُ الـرُّومِ نَـاظِـرَهُ
لأنَّ عَـفْـوَكَ عَـنْـهُ عِـنْـدَهُ ظَـفَـرُ[٣]
وَإنْ أجَـبْـتَ بِـشَـيْءٍ عَـنْ رَسَـائِـلِـهِ
فَـمَـا يَـزَالُ عَـلـى الأمْـلَاكِ يَـفْـتَـخِـرُ[٤]
قَـدِ اسْـتَـرَاحَـتْ إلـى وَقْـتٍ رِقَـابُـهُـمُ
مِـنَ الـسُّـيُـوفِ وَبَـاقِـي الْـقَـوْمِ يَـنْـتَـظِـرُ[٥]
وَقَـدْ تُـبَـدِّلُـهَـا بِـالْـقَـوْمِ غَـيْـرَهُـمُ
لِـكَـيْ تَـجِـمَّ رُؤوسُ الْـقَـوْمِ وَالْـقَـصَـرُ[٦]

(١) و (٢) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. يذكر الشاعر السبب الذي أدّى إلى تأخره، إنه ازدحام الجيش في باب القصر ممَّا حال دون وصوله إلى بلاط الأمير في الوقت المناسب، فلم يسمع ما جرى ولم يَرَ ما حدث، ولكنه استعلم ممن رأى وسمع، فكأنه سمع ورأى؛ ولذا فوصفه للحدث مبنيّ على السماع فقط.

(٣) ناظره: عينيه. إنه يوم حظّ لملك الروم، فرض الممدوح عليه أمدّه بعفو سيف الدولة، وقد كان كسير الخاطر يُطرق نظره إلى الأرض انكساراً وخزياً لعدم رضى سيف الدولة عنه، أما وقد حظي برضاه فقد دخل في حمايته ومهادنته؛ فكان ذلك بمثابة فتح عهد جديد بين العدوّين اللدودين.

(٤) و (٥) ولقد كانت إجابة سيف الدولة على رسائل ملك الروم والموافقة على إعلان الهدنة وإقامة معاهدة السلام بينهما مدعاة فخر الملك الذي راح يتطاول على سائر الملوك الذين لا يزالون على عداء مع سيف الدولة لمغبّة ذلك عليهم، وكان من نتيجة ذلك أن رقاب القوم استراحت، وارتدّت إليهم نفوسهم نتيجة عقد الصلح، بينما من بقي على عداء، فإنهم ينتظرون أن يُفاجئهم سيف الدولة بجنوده في كلّ وقت. وترقّبهم هذا يجعلهم يأملون أن يُصالحوا الأمير فيكتفون شرّ جنوده وضرب سيوفه.

(٦) تجمّ: تكثر. القصر، الواحدة قصرة: أصل العنق. ودائماً للسيوف دور في إهلاك =

تَـشْـبِـيـهُ جُـودِكَ بـالأمْـطَـارِ غَـادِيَـةً
جُـودٌ لِـكَـفِّـكَ ثَـانٍ نَـالَـهُ الْـمَـطَـرُ(١)
تَـكَـسَّـبُ الـشَّـمْـسُ مِـنْـكَ الـنُّـورَ طـالِـعَـةً
كَـمَـا تَـكَـسَّـبَ مِـنْـهَـا نُـورَهُ الْـقَـمَـرُ(٢)

الموت اضطرار

يصف إيقاعه بهذه القبائل وكان أبو الطيب لم يحضر الواقعة فشرحها له سيف الدولة:

[الوافر]

طِـوَالُ قَـنـاً تُـطَـاعِـنُـهَـا قِـصَـارُ
وَقَـطْـرُكَ فـي نَـدًى وَوَغًـى بِـحَـارُ(٣)
وَفِـيـكَ إِذَا جَـنَـى الـجَـانِـي أَنَـاةٌ
تُـظَـنُّ كَـرَامَـةً وَهِـيَ احْـتِـقَـارُ(٤)

= أعداء الأمير، وهم كثر، لذا لا بدّ من استبدال الروم بغيرهم، وفي حال كثروا بالتوالد وانتهى من أعدائه فيعود ليفنيهم من جديد.

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بكرمه، فكفّه مطر ينهمر كما ينهمر الماء غزيراً، وبذلك يعتزّ المطر بتشبيهه بجود الأمير.

(٢) تكسب: تستمدّ. ولوضاءة الممدوح فإن الشمس تستمدّ ضياءها ونورها في حال إشراقها تماماً كما يكتسب منها القمر ضياءه، فإذا ظهر الممدوح اشرأبّت لتكتسب وإلّا فالظلمة تكتنف سائر الكون.

(٣) القنا: الرماح. الندى: الكرم. الوغى: الحرب. يُخاطب الشاعر ممدوحه، منوّهاً بشجاعته، إنها لا تُؤثر الرماح الطويلة بها فتتقاصر أمام شجاعته ويضعف حاملوها، وبكرمه العظيم، فمهما قلّ رفده فإنه بحر زاخر.

(٤) جنى عليه: أن يدّعي عليه ذنباً لم يفعله، اجترم جناية. الأناة: الصبر مع الحلم. يصف الشاعر ممدوحه بالعفو عند المقدرة والحلم والصبر على من اجترم فعلاً سيّئاً بحق الممدوح، ولجهل ذاك يعتقد أن الممدوح يُكرمه لضعف فيه، والحق أنه احتقار من الممدوح لشأنه، والأمر لا يتعلّق بكرامته.